السامريون وعلاقتهم بالمسلمين

من الفتح الإسلامي حتى العصر المملوكي

أ.د. محمد عثمان عبدالجليل

كلية الآداب ـ جامعة بور سعيد

يشـغل التاريخ الإسـلامي فترة زمنية طويلة تغطي معظم فترة العصـور الوسـطي على مساحة جغرافية واسعة تمتد من حدود الصين في آسيا إلى غرب آسيا وشمال أفريقيا وصولا إلى شـبه جزيرة الأندلس. ويجمع جمهور المؤرخين على أن التاريخ الإسـلامي تبدأ أحداثه منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على النبى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ثم تأسيس الدولة الإسـلامية بالمدينة المنورة إلى نهاية الإمبراطورية العثمانية التي تعتبر آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسم الإسلام ، والتي شغلت رقعة جغرافية واسعة. منذ البداية وتميز الإسلام منذ بدايته بأنه أكثر من دين ينظم العلاقة بين الإله كخالق وبين الإنسـان كمخلوق كما تفعل معظم الأديان الأخرى. وكان أهم تأثير سياسي للإسلام أنه استطاع إقامة دولة في المدينة المنورة يسودها تشريع يحكم الجميع، ووثائق ومعاهدات مع الأقلية اليهودية التي كانت تسكن المدينة .

والجدير بالذكر أن مطلع القرن السـادس الميلادي / الأول الهجري شـهد موجة الفتوحات الإسـلامية التي تخطت حدود الجزيرة العربية لتزيد من أوجاع القوتين العظميين المعاصرين لتلك الفترة المتمثلين في الدولة البيزنطية والإمبراطورية الفارسية الساسانية. حيث استطاع المسلمين من الاستحواذ التام علي فارس، واستقطاع معظم الأملاك البيزنطية في بلاد الشـام وشـمال إفريقيا. وكانت تلك الأراضـي المفتوحة تضـم العديد من العرقيات والديانات المختلفة التي اندمجت في إطار الدولة الإسلامية.

ولقد كان لدي العرب جميع الفرص التي تتيح لهم حسـن استقبال الشـعوب القديمة السـامية والسـورية وما بين النهرين ومصـر، والذين اعتبروهم محررين لهذه البلاد، فإلي جانب العلاقات الاثنوغرافية (١) Ethnography واللغوية التي تربط تلك الشـعوب بالعرب، كانت هذه الشـعوب قد خضـعت عهودا طويلة لحكم الرومان ثم للدولة البيزنطية وريثة الرومان الغرب،

وفارس في الشرق. وتعد الطائفة السامرية Samaritans(٢)احدي الطوائف التي خضعت للدولة الإسلامية بحكم الفتح الإسلامي لفلسطين.

وتهتم تلك الدراسة التي تحمل عنوان " السامريون تحت الحكم الإسلامي" بالتعريف بطائفة السامريين من حيث أصولهم ونشأتهم والآراء التي دارت حول ذلك، إلى جانب طبيعة علاقتهم بنظم الحكم الإسلامي منذ الفتوحات الإسلامية حتى دولة المماليك.

ومما يذكر أن الطائفة السامرية قد عانت العديد من الويلات في العصر البيزنطي، مما جعلها في حالة ثورة دائمة علي الممارسات البيزنطية ضدها، والتي كان أخرها في عهد الإمبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) ، الذي مارس ضدهم سياسة التعميد الإجباري للمسيحية نتيجة الضغوط التي مارسها عليه رجال الدين بعدما شاركوا الفرس بعد اجتياحهم لفلسطين عام ٦١٤م في حرق الكنائس وإنزال المذابح والسلب والنهب بالمسيحيين (٣).

وكانت تلك السياسية أحد الأسباب التي جعلت السامرين يؤيدون الفتح الإسلامي لفلسطين أملاً في تحسين أوضاعهم والعيش في سلام، خاصة وأن البعض يحاول أن يوحي بوجود نوع من التقارب والتشابه بين بعض العبادات في الدين الإسلامي والعقيدة السامرية. فحسب تلك الرؤية يروا أن الإسلام هو أقرب الديانات إلى السامرية من حيث الوحدانية والطهارة، وصلوات السامرين ركوع وسجود والتي يسبقها وضوء اليدين والفم والأنف والوجه والأرجل. كما يستشهدون بما جاء في القرآن الكريم في قول الله عزل وجل " ومن قوم موسي أمة يهدون بالحق وبه يعدلون" (٤)

فهل اختلفت أوضاع السامرين عما كانت عليه خلال العصور السابقة بعد قيام الدولة الإسلامية، هذا ما سوف تتناوله تلك الدراسة خلال السطور القادمة. وتكمن الصعوبة

في تلك الدراسة في ندرة المصادر التي تناولت أخباروأحوال السامرين خلال تلك الفترة ، وبخاصة المصادر الإسلامية التي تناولت معظمها مناقشة وضعهم فقهيا من ناحية الجزية والخراج أكثر من وضعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، مما جعل الباحث يلجأ للمصادر العبرانية وبخاصة تلك التي قام بتأليفها سامرين، وكانت هي الأخرى مقلة ومتأخرة زمنيا عن معظم الأحداث ، ويعود السبب في ذلك إلي :

أولا: اعتماد السامرين في تدوين التاريخ علي الكاهن الأكبر في كل الأمور الدينية والدنيوية.

ثانيا: اعتقاد الغالبية العظمي منهم أن كتابة التاريخ أمر محرم، باعتباره محاكاة للكتب الدينية، والتوراة بشكل خاص.

ثالثا: اعتماد كهنة ورجال الدين السامريين في صيانة التراث والأدبيات السامرية على حفظ الوقائع والمناسبات المتعلقة بالطائفة عن ظهر قلب وعدم تدوينها بالوقت المناسب.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أراء المؤرخين اختلفت فيما بينهم حول أسم وأصل السامرين بشكل واضح. فبقية الطوائف اليهودية التي دأبت علي التحقير من شأن السامريين وقذفهم بالوثنية أطلقوا عليهم مسميين، الأول شومرونيم Shamronim، أي " السمرة " وهو أسم مرادف للوثنية . ويعتمد أصحاب هذا الرأي على رواية العهد القديم " فكانت كل أمة تعمل آلهتها ووضعوها في بيوت المرتفعات التي عملها السامريون"(٥).

وأما التسمية الثانية والتي أطلقها عليها طائفة الفريسيين Pharisess(٦) دون غيرهم أسم الكوتين ، الذي يعني الخارجين عن الدين ، ويعتمد أصحاب هذا الرأي علي رواية سفر الملوك الثانية " وأتي ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفرايوم وأسكنهم في السامرة

" علي اعتبار أنهم الفئة التي احضـرها الآشـوريون من كوت أحدي مدن أرض الجزيرة ، والذين كانوا يعبدون الإله البابلي نيرجال Nergal(٧). ويشـيرون إلى أن السـامريون ليسـوا إلا أبناء السلالات الغريبة التي أحضرها الملك الآشوري شلما نصر الخامس Shelmanser V (٧٢٧- ٧٢٢ ق.م) من أرض الجزيرة ووطنهم في السـامرة. والقصـد من ذلك بطبيعة الحال هو طمس الهوية اليهودية للسامرين ورميهم بالوثنية. أما وجهة النظر المسيحية فنتعرف عليها من خلال البطريرك يعقوب الفتري، أنهم يسـتخدمون الحروف العبرية مثل اليهود. وقد تسـلموا أسـفار موسـي الخمسـة فقط، ولكنهم لا يعترفون ببقية الأنبيـاء،، وأضـاف أنه عندما اقتاد شـلمانصر– ملك اشـور- القبائل الإسـرائيلية العشـر أسـري ، أرسـل السـامرين سـالفي الذكر إلي مقاطعة نابلس ليرثوا الأرض مكان اليهود ، وهو هنا لم يجذم بقول فصـل هو حقيقة نسـبهم ، ولكنه خلط الأمور ببعضها(٨).

أما السـامريون فلم يقبلوا بهذه المسـميات، وأطلقوا علي أنفسـهم أسـم شـامريم Shamerim أي " حفظة الحقيقة" Keeper of Truth . وتبريرهم لذلك أن كلمة "شـامرين" مرادفة لكلمة "شـومرونيم"، والكلمتان تحملان معنا واحدا عند السـامرين أي الحفظة أو حماة القـانون أو المحـافظون على يوم السـبت. وهـذا المعني يؤكـد على أنهم خلفـاء للإسـرائيليين المحافظين على العقيدة. وفي نفس الوقت فإنهم يرجعون السـبب في إطلاق لفظ الكوتيين عليهم إلى أسـلافهم عند عودتهم من السـبي حضـروا إلى مكان يسـمي "وادي كوتا". ويدعمهم في ذلك جاسـتر Gaster الذي يشـير إلي أن الكوتين كانوا مجرد جنود نظاميين تم نقلهم للسـامرة للحفاظ علي الأمن فقط، ولم ينصـهروا أو ينخرطوا في المجتمع. ولكن اليهود اسـتغلوا وجودهم للتشـهير بالسـامرين (٩). وعن أصـولهم يقول السـامريون أنهم من نسـل يوسـف (أفرايم ومنسـي) الأمناء الذين رفضوا إتباع عالي الكاهن. وعلي ما سبق فإن السامرين يضعون احتمالين لهذه التسمية، الأول أن كلمة سـامري جاءت تحريف للكلمة المنطوقة باللغة العبرية "شـامر"، التي تعني

"الحارس" أو "المحافظ"، أي أن التسمية أطلقت عليهم لحفاظهم على معتقداتهم في فترة انقسام مملكة بني إسرائيل إلى شمالية وجنوبية، فكانوا هم المحافظون على الديانة العبرية القديمة، والذين بقوا أمناء لها من سائر بني إسرائيل، أما الاحتمال الثاني فإن التسمية تعود إلى أحد الأشخاص من بني إسرائيل، الذي كان يدعى سامري اشترى أرضاً واسعاً في منطقة سبسطية فأطلق عليها "السامرة" ونودي سكانها بالسامرين، ويرجح السامريون في الوقت الحاضر سبب تسميتهم إلى الاحتمال الأول (١٠).

ومما يذكر أن الاختلاف بين الطوائف اليهودية لم يتوقف عند التسميات، ولكنه امتدت إلي العقيدة نفسها، فالسامرين يتميزون بأن لهم معتقدات وطقوس دينية واجتماعية تختلف عن سائر معتقدات بقية الطوائف اليهودية الأخري، فعقيدتهم مبنية علي التجسيم، ولهم كنائس في كل بلد تخصهم، ومحرم عليهم دخول القدس منذ أيام النبي داود، لأنهم يدعون إنه ظلم واعتدي، وحول الهيكل المقدس من نابلس إلي إيليا "القدس"، ولا يصافحون الناس، وإذا حدث يغتسلون . والسامريون أنفسهم ينقسمون إلي قسمين الكوشان أو الكوشانية kushanians والدوستان أو الدوستانية Dustanians والدوستانية معناها الفرقة التفرقة الكاذبة، والتي تزعم أن الثواب والعقاب يكون في الدنيا فقط، أما الكوشانية فمعناها الجماعة الصادقة، وهم يقرون بالآخرة والثواب والعقاب فيه(١١).

صورة توضح ممارسة الطائفة السامرية لطقوسها علي جبل جرزيم

وتعد نابلس المركز الرئيسي للسامرين، ويوجد بها كنائسهم، حيث يتخذ السامريون من جبل جرزيم قبلة لهم ويقدسونه ويرون أنه الموضع الذي وقف عليه إبراهيم بابنه ليذبحه وبنو فوقه هيكلهم ليحجوا إليه، فهم يؤمنون بأن جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدس الحقيقي وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبني إسرائيل ويزعمون أن موسى عليه السلام كان يجعل قبلته نحو ذلك الجبل، ويقولون إن داود وسليمان غيرا القبلة القديمة كما ذكرنا سلفا، ويوجهون إليه موتاهم. ومن معتقداتهم أيضا أن نابلس هي القدس، ويقومون بالحجيج إلي جبل الطور المشرف علي نابلس وفيها كهف أسفله عين يعظمونها. وهذا ما جعل عدد من الرحالة والجغرافيين يقولون بأنه "ليس للسامرة مكان من الأرض إلا بها، وأطلقوا عليها أسم مدينة السامرة ومركزها قرية "بيت ماما" (١٢).

صورة توضيحية لجبل جرزيم

ورغم حالة الخلاف الديني بين طائفة السامرية وبقية الطوائف اليهودية، فلم يتطور هذا الخلاف إلي شقاق سياسي بينهما حيث عاشوا دون نزاعات أو صراعات عرقية. ورويدا رويدا تحولت العلاقة بين السامريين واليهود إلي نوع من المودة نتيجة المعاناة التي تجرعوها سويا خلال فترة الحكم البيزنطي والتي بلغت ذروتها بمرسوم الإمبراطور جستنيان بتعميد الطوائف اليهودية بصفة عامة(١٣). وقد ساعد ذلك فيما علي خفة حدة النقد الذي وجهها اليهود سابقا للسامرين،

حتي وجدنا بعد ذلك احدي الكتابات الأوربية الحديثة تقول أن الاعتقاد السائد حتي منتصف القرن العشرين بأن السامريين نشئوا أصلا من مزيج من الشعوب التي سكنت السامرة، ليس صحيحا وأن هناك أشارات إلي أن السامريين هم من بني إسرائيل بما فيهم كبير الكهنة، وهو ما يظهر بطبيعة الحال أن هناك تحولا في وجهة النظر الأوربية الحديثة حول أصل السامريين (١٤).

وبالنسبة للمصادر الإسلامية، فالبيروني والذي كان متأثراً بالروايات اليهودية يصفهم بأنهم الأمساسية، وهم الذين وطنهم نبوخذ نصر بالشام بدلا من اليهود الذين أجلاهم. أما المقريزي فلا يبعد كثيرا في وصفهم عن البيروني، حيث يقول في روايته" أعلم أن طائفة السمرة ليسو من بني إسرائيل البته، وإنما هم قوم قدموا من بلاد المشرق"، وتوضيحا للأمور فالقلقشندي يقول " وقد قال الشافعية إن وافقت أصولهم أصول اليهودية فهم منهم " (١٥).

وقبل الخوض في الحديث حول وضعية السامرة وعلاقتهم بالمسلمين، يجب ان نتعرض لعلاقة بالمسيحيين لما تأثير على تلك العلاقة فيما بعد مستقبلاً. وكانت هذه العلاقة تتسم بالتوتر في كل مراحلها، فقد أدي الانتشار التدريجي للمسيحية خلال القرن الرابع الميلادي في فلسطين حتى وصل إلى معاقل السامرين في نابلس وغيرها من المدن إلى الصدام بينهما. وأصبح هناك نوع من التنافس والصراع بين الديانتين حول الزعامة الدينية في المنطقة، خاصة وأن هذه المنطقة قد افتقدت التواجد العسكري للحامية الرومانية خلال نهايات القرن الثالث الميلادي وبدايات القرن الرابع الميلادي، مما شجع السامريون على تعزيز دفاعاتهم وتكوين قوة عسكرية محلية مدربة على أعمال السلب والنهب، مارست اعتداءاتها على المسيحيين في كثير من الأحيان تحت مظلة الأباطرة الوثنين. وزيادة منهم في النكاية لهم قاموا بتقديم القربان في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٣٠٥-٢٨٤ م) Diocletian عن طيب خاطر (١٦). فما كان من المسيحيين إلا رد الصاع لهم في عهد الإمبراطور قسطنطين، من خلال الضغط عليه من أجل التنكيل بهم وإضعاف

شـوكتهم في معقلهم الرئيسـي بمنطقة نابلس. وقاموا أيضـا بالتوسـع في بناء الكنائس وأعمال التبشـير التي جذبت العديد منهم لاعتناق المسـيحية، وهذا ما اعتبره السـامريون إنذار شـديد الخطورة ، لأن نجـاح المسـيحيين يعني انخفاض تعداد السـامرين ، و هو ما يهدد عقيدتهم بالانقراض (١٧). وبذلك ظل القلق وانعدام الثقة هي الصـور الغالبة على العلاقة بين الطرفين حتى الفتح الإسلامي لفلسطين.

وفيما يتعلق ببداية العلاقة بين المسـلمين والسـامرين فقد اختلفت المصـادر في تحديد تلك البداية. فحسـب المصـادر السـامرية، فتشـير تلك المصـادر أن بظهور دعوة الرسـول علية الصلاة والسلام، كان هناك ثلاثة منجمين مهرة، أولهم سـامري ويدعي صـرماصـة من عسـكر، والثاني يهودي واسـمه كعب الأحبار، والثالث راهب واسـمه عبدالسـلام ،قاموا فور سـماعهم بظهور الرسول بالاجتماع سويا ، وقالوا نسيرونننظر هذا الرجل. فساروا حتى وصلوا إلى المدينة، ويفهم من سياق الحديث أن سيرهم للرسـول كان بعد هجرته صلي الله عليه وسلم من مكة إلي المدينة. ورغم اقتناع الثلاثة بنبوة الرسول ، فقد أسلم فقط كل من كعب الأحبار والراهب بينما تمسك صرماصة بعقيدته ، وبرر لرسول موقفه ، وقال له جئتك لأجل عهد وميثاق اعتمد عليه أنا وأهل ديني وملتي وأمان وذمام لحفظ النفوس والذراري والمال والوقف وبناء بيوت العبادة فأمر الراقم أن يكتب لهم عهد وأمان ، ويشير أبوالفتح لذلك في قوله :" بأمر أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب أمرت أن يكتب للسـامرة أمان وذمام علي أنفسـهم وعلي ذرارهم وأموالهم وبيوت عبادتهم وأوقافهم في كل بلادهم وفي كل حوزهم وأن نسـير فيهم وفي ذمم أهل فلسـطين بالسـيرة الحسـنة" . فأخذ صـرماصـة العهد وانصـرف من عنده . ورغم ذلك فهناك من الأدلة التي تشـير لاعتناق بعض السـامرة للإسـلام، حيث كان في دمشـق محمد بن عبدالله الصـفد من مسـلمة السامرة(١٨).

وهناك ملحوظتين هامتين على تلك الرواية، الأولي أن تلك الحادثة لم يرد لها أي ذكر على الإطلاق في المصادر الإسلامية سواء الباكر منها أو المتأخر. والثانية، كيف لصرماصة أن يطلب الأمان ويحصل عليه في كتاب وهو حتى هذه اللحظة تابع لدولة الروم التي تسيطر علي كل بلاد الشام، والتي لم تكن الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها بعد، وهو ما يضع تلك الرواية موضع الشك. والمحتمل أن أبوالفتح أراد من تلك الرواية أن يعزز من شأن بني جلدته في تمسكهم بعقيدتهم وعدم التخلي عنها بسهولة، إلي جانب السعي لكسب مودة الحكام المسلمين ، وتجنب تعرض السامريون إلي أي نوع من الإيذاء باعتبار أنهم يحملون ميثاق وعهد من نبي وقائد الأمة محمد بن عبدالله ، وربما أراد أن يخلط بين العهدة العمرية وبين تلك الرواية علي اعتبار أن هناك صك سابق خاص بهم قبل أن يعمم علي كل أهل الذمة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو ما يجعل تلك الرواية أقرب للأسطورة من الحقيقة التاريخية.وتأكيداً لهذا الكلام فقد حدث أن تقدم اليهود في شهر شوال من عام ٧٠١هـ في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون يطلبون الإعفاء من الجزية نتيجة ما تعرضت له بلاد الشام من خراب بسبب الجراد ، زاعمين أنهم يمتلكون كتاب من رسول الله يعفيهم من الجزية ، وقد ثبت كذبهم بعدما اطلع العلامة ابن تيمية علي هذا الكتاب وتحقق من زيفه (١٩).

وفيما يتعلق بالظهور الفعلي للسامرين علي مسرح الأحداث مع بدايات الفتوحات الإسلامية لفلسطين وعلاقتهم بالمسلمين الفاتحين الجدد ، فهناك ثلاث روايات مختلفة تدور حول هذا الأمر.فطبقا للمصادر الإسلامية فإنها تشير إلي أن ظهور السامرين علي مسرح الأحداث في العصر الإسلامي كان مع الفتوحات الإسلامية لفلسطين. حيث تعاونوا مع قادة الفتح الإسلامي خلال عملية الفتوحات في الأردن وفلسطين ، فكانوا بمثابة العيون والإدلاء لهم ، ويشير البلاذري إلي ذلك بقوله " أبو عبيدة بن الجراح صالح السامرة بالأردن وفلسطين ، وكانوا عيونا

وإدلاء للمسلمين ، علي جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم " إلا أن البلاذري لم يذكر في كتاباته أي تحديد لقيمة تلك الجزية (٢٠).

أما المصادر السامرية فقد أشارت إلي أن بعض السكان السامرين في المدن الساحلية في أرسوف ويافا وعسقلان وغزة وغيرها من المدن قاموا بالفرار للشرق مع القوات البيزنطية المغادرة عقب تقدم الجيوش الإسلامية ، وقاموا بترك أموالهم أمانة لدي أحد الكهان يدعي " عقبون بن العزر" في منطقة بيت صامة والذي كان يتمتع حسب وصف المصادر السريانية بالأمانة والسمعة الطيبة ، ويشير أبو الفتح لذلك بقوله " وهربوا الروم وكل السامرة الذين كانوا علي ساحل البحر هربوا مع الروم إلي رومية جاؤا إلي الرئيس عقبون ابن العزر ونحن نودعك مالنا إلي ما نعود" . وتعد هذه الرواية محل شاك ، فكيف لطائفة السامرة غير المرغوب فيها لدي البيزنطيين في السماح لها لدخول الأراضي البيزنطية ، وخاصة وأنه لم يكن هناك وفاق بينهما خلال القرون الثلاث الأخيرة السابقة للفتح الإسلامي لفلسطين (٢١). أما الرواية الثالثة للمؤرخ ميخائيل السرياني الذي يشير إلي أن السامرين انضموا للقوات البيزنطية لمواجهة الهجوم الإسلامي علي قيصرية ، ويصف ذلك في قوله" فجمع البطريق سرجي جيشا من الروم والسامرين مؤلفا من خمسة آلاف رجل واستعد لحرب المسلمين. غير أن جانب المسلمين كان الأقوى فسيطروا علي الروم ، وأبادوا أولا السامرين ، فلما رأي البطريق ذلك دار ظهره وهرب". أما رواية البلاذري في فتح قيصرية فتقدر عدد السامرين بثلاثين ألف(٢٢).

وبقراءة النصوص الثلاث نجد أن الأمر اختلط علي أبو الفتح الذي لم يطلع على الرواية السريانية، فقال برحيل السامرين مع البيزنطيين الفارين. وبالنسبة للسامرين فانقسموا قسمين فهناك من تعانوا مع المسلمين الفاتحين الجدد ونالوا جزاء تعاونهم، وقسما آخر تعاون مع البيزنطيين رغم ما بينهم من عداء سافرونالوا أيضا جزاءهم بالفناء.

وقد استقرت أحـوال الطائفة السامرية دون تغير يذكر طوال عصر الخلفاء الراشدين وبدايات العصر الأموي، وعاشوا كما يؤكدون، في أمن واستقرار وهدوء، حيث كانوا يعيشون في تلك الفترة على شـكل قبائل في القرى والمدن المحيطة بنابلس، ومن هذه القبائل قبيلة زهر، وعمران، وزيت، ويهوشع وإبراهيم النور، وإسرائيل، ويوسف، وآل بكر، وياسر بن نون، وحكم، ويردن شريان. ورغم ما تعرض العالم الإسلامي من اضطرابات بسبب فتنة عثمان والصراع الذي اشتعل بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن سفيان ، والذي أنتهي بانقضاء عصر الخلفاء الراشدين وظهور الدولة الأموية ككيان سياسي جديد ، فلم تشر المصادر لأي حركات تمرد سامريه مستغلين تلك الظروف التي تحيط بالدولة الإسلامية وهو ما يعني أنهم كانوا علي وئام مع النظم الإسلامية وينعمون بحياة مطمئنة في ظل الحكم الإسلامي(٢٣).

وكانت بداية التغير في العلاقة خلال عهد الخليفة يزيد بن معاوية الذي فرض عليهم ضرائب علي الرأس وعلي الأراضي بلغت ما يقرب من خمسة دنانير، ورغم ذلك فلم يبد السامريون أي تذمر من تلك السياسة الضريبية، علي اعتبار أن تلك الزيادة شملت بقية أهل الذمة في الأردن وفلسطين (٢٤). كما تعرض السامريون خلال العصر الأموي لحالة من التشدد، عندما دعا الخليفة عمر بن عبدالعزيز ولاته إلي إلزام أهل الذمة بترك العمائم ولبس الأكيسة وعدم التشبه بأهل الإسلام ومنعهم من استخدام المسلمين. علي أن الضرر الفعلي للسامرين كان بسبب الزلزال الذي حدث في عهد الخليفة وخلف وراءه دمار شامل في الأرواح والمباني والأراضي الزراعية ، وهو ما كان سببا في فناء العديد منهم.، وغير ما سبق لم يطرأ أي تغير في أحوال الطائفة السامرية فيما تبقي من عمر الدولة الأموية. وهنا يجب أن نشير لأمر هام ، وهو أن السامرين لم يعلنوا تذمر أو تمرد حتي هذه الفترة مثلما كان يحدث في العصر البيزنطي، وهو ما يعني الطمئنينه والحرية التامة في العيش وممارسة الحياة الدينية وعدم تعرضهم لإكراه ديني(٢٥).

علي أية حال دانت السيطرة بعد ذلك لبني العباس علي العالم الإسلامي بعد هزيمتهم لبني أمية في موقعة الزاب الكبري عام ٧٣٠م /١٣٢هـ ،ولم يغير بنو العباس في التنظيم الإداري الذي كانت عليه فلسطين، ، وكل ما حدث أنهم غيروا كلمة "جند" إلي كلمة "ولاية". وأصبحت الرملة مركز ولاية فلسطين ،كما أصبحت طبرية مركز ولاية الأردن . وقد وقعت التي انضوت فيما بات يعرف باسم فلسطين في ولايتين هما ولاية الأردن وولاية فلسطين وقسمت ولاية فلسطين ‘إلي اثنتي عشر كور هي: الرملة وإيلياء وعمواس واللد ويبنا ويافا وقيسارية ونابلس وسبسطية وعسقلان وغزة وبيت جبرين . وبالتالي أصبح السامرين من رعايا الدولة العباسية . وقد اختلف وضعهم في العصر العباسي من فترة لآخري طبقا للظروف والمعطيات السياسية . فقد استهل العباسيون فترة حكمهم بسياسة مالية تتسم بالشدة ، حيث قام عبدالله بن علي والي فلسطين من قبل الخليفة العباسي أبو العباس الملقب "بالسفاح" بفرض ضرائب باهظة واستخدام كل وسائل الشدة في جمعها ، ويصف أبوالفتح هذا الأمر قائلاً" وأضعفوا الخراج في الأرض وضيقوا علي الناس فيها وجبوا المال وجمعوه جد" (٢٦).

وضاعف من آلام السامرين تلك التجاوزات التي مارسها ضدهم عبد الوهاب ابن إبراهيم الملقب بـ "أبوشندي" والي فلسطين في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور، حيث أصدر أوامره لنائبه في نابلس بإشعال النار في القبة التي تم بناؤها في عهد الإمبراطور البيزنطي زينون علي جبل جرزيم . وفي تطور للأحداث وحسب وصف المصادر السامرية اشتعل حريق في كنيسة مسيحية أسفر عن مقتل عدد من الرهبان ، ورغم غموض هذا الحادث، فقد تم توجيه الاتهام للسامرين، مما أوجد حالة من الصراع بين السامرين والمسيحيين في نابلس، واستغل متولي نابلس ذلك الأمر وقام بالقبض علي كبير الكهنة وقام بحلق شعر رأسه وفرض عليه غرامة كبيرة ، تكاتف أهل طائفته وتمكنوا من جمع الأموال لإطلاق صراحه. والشئ الملاحظ أن المؤرخ السامري أبو الفتح لم يذكر أي أسباب توضيحية لقيام الوالي بفعل هذا الأمر، كما أنه لم يذكر

أي معلومة حول رد فعل المسيحيين حول هذا الحدث ، كذلك عما إذا كان للسامرين أي رد فعل خلال تلك الأحداث(٢٧).

علي أية حال لم يكن سلوك الوالي عبدالوهاب بن إبراهيم مقصود به اضطهاد الطائفة السامرية علي وجه الخصوص ، ولكنه سلوك عام انتهجه ضد كل رعايا الدولة العباسية في فلسطين ، وهو ما صدق به المؤرخ الجهشاري عندما ذكر شكوي أهل فلسطين للخليفة أبوجعفر المنصور من واليه عبدالوهاب بن إبراهيم قائلا" ما وراءك يابن مجير، فأخرج له طائرا من كمه، قد نتفه حتي لم يبق منه ريشة واحدة ، فقال له ، فارقت البلد يا أمير المؤمنين، وقد نتفه أبن أخيك حتي تركه كما تركت هذا الطائر "(٢٨). وقد أنكر أبو جعفر المنصور هذا الأمر إنكاراً شديداً وقام بعزله. وظلت الأمور هادئة فيما تبقي من عهد المنصور ، وظل الأمر كذلك حتي ولاية المهدي عام ١٥٨هـ/٧٧٥م ، وخلالها تم القيام بتعداد للسامرين ، ولكن لم تفصح المصادر سواء الإسلامية أو السامرية عن معلومات حول هذا التعداد ، وكم عدد السكان من السامرين وأماكن تواجدهم خلال تلك المرحلة (٢٩).

ورغم المسلك الطيب للخليفة المهدي مع السامرين ، إلا أنهم تعرضوا لمشكلة هامة كانت هذه المرة من صنع أيديهم وليس بفعل الآخرين والتي كادت أن تهدد عقيدتهم. حيث يشير أبو الفتح إلي الاختلاف بين السامرين وبعضهم بسبب الحساب أو التقويم العبراني مما أدي إلي الاختلاف بينهم فيما يتعلق بأيام الصوم ، فانقسموا علي أنفسهم ، فريق يقول بصوم يوم الاثنين، وتزعم هذا الفريق نثنال بن قرسبا ، والفريق الآخر مع قرفلة والذين قاموا بالإفطار يوم الإثنين، وقاموا بصيام يوم الثلاثاء ، فاجتمع الطرفان لدي رئيس الطائفة ويدعي "درثة" ، وبعد نقاش وتمحيص أيد الحضور ما قال به "نثنال"، وفي ذلك يقول أبوالفتح " وكشفوا فأصابوا الحق مع نثنال وشد كل الشعب معه وسيرة إمامته بالحق" (٣٠).

ورغم سياسة التسامح التي أبداها الخليفة هارون الرشيد نحو السامريون فقد تعرضوا لشدة عظيمة ، وكانت هذه المرة بسبب الظواهر الطبيعية وليس لفعل البشر، حيث تعرضت المنطقة لوابل من الجراد الذي آتي علي الأخضر واليابس ، مما اضطر الناس إلي هجر ديارهم وأملاكهم للفرار من المجاعة ، والخوف من أن يتعرضوا لأعمال عنف أو سلب ونهب، ويصف البلاذري هذه المجاعة قائلاً "فخربت أرضوهم وتعطلت. فوكل السلطان بها من عمرها ، وتألفت الأكرة والمزارعين إليها ، فصارت ضياعاً للخلافة وبها السمرة" ، وهو ما يعني سلب حيازة الاراضي من أصحابها(٣١).

وتوالت الكوارث التي تعرضوا إليها ، وكانت هذه المرة مع الفتنة التي تعرض لها العالم الاسلامي ، والتي تعرف تاريخيا " بفتنة الأمين والمأمون"، حيث يصف أبوالفتح هول الموقف وما تعرض له السامرين من كوارث بسبب ما تعرضت لهم بيوتهم من سلب ونهب مثلما حدث لمعظم بيوت المسلمين، وما زاد الطين بالة ما تعرضوا له بعد ذلك من مجاعة بسبب هجوم جديد للجراد ، وكانت الفاجعة كبيرة هذه المرة، حيث ماتت أعداد كبيرة شملت علماء وكهنة، إلي جانب العامة الذين فقدوا الاتصال مع ذويهم ولم يتعرفوا علي قتلاهم من شدة الموقف، ويصف أبو الفتح هذا الموقف قائلا " وما أكبر من بنين بعدوا عن أبائهم وأباء بعدوا عن بنيهم ، وماتوا ما عرف واحد منهم حال الأخر كيف كان من الموت والجوع" (٣٢) . ويتضح مما سبق أن هذه الكوارث كانت سببا في تناقص العدد في سلالة السامرين ، والدليل علي ذلك ما قال به أبوالفتح في وصف من صعد للجبل للحج قائلا "أن عددهم كانوا مثل ما يجتمع في كنيسة "(٣٣).

وقد استمرت الفوضى لبعض الوقت بعد وفاة الأمين ، وتولي المأمون ، حيث قام البعض من زعماء القبائل بفرض السيطرة علي بعض النواحي في فلسطين لضعف السلطة المركزية للعباسيين، فكان هناك رجل يدعي "ابن الشرح" أو أبي السرح" ، الذي مارس الكثير من

أعمال السلب ضد السامرين . وبعد ذلك قام المتمردين بقتل حاكم نابلس بحجة أنه أظهر نوع من المودة والتعاطف مع السامرين ، كما قاموا بتقديم أبنة الكاهن الأكبر للقضاء بتهمة الزنا ، ولكن سرعان ما أطلقوا صراحها(٣٤) .

وخرج بعد ذلك مدعي جديد يدعي خالد بن يزيد علي الخليفة المأمون ، والذي أساء كثيرا في معاملة السامرين ، ووصل الأمر إلي سفك دماءهم مما جعل الكثير منهم يتركون أراضيهم ويفروا هاربين ، وعندما وصلت الأخبار للخليفة المأمون أرسل قائده عبدالله بن طاهر للقضاء عليه . وعندما شعر خالد بقدوم عبدالله بن طاهر فر هاربا إلي مصر فتتبعه عبدالله ليقضي عليه. وتعليقا علي هذا الأمر يقول المؤرخ مونتجمري أن عبدالله بن طاهر منح السامريون قبلة الحياة من جديد(٣٥).

وقد شهدت فلسطين في نهاية عهد الخليفة المعتصم ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين التي بدأت أحداثها عام ٢٢٧ هـ /٨٤١م ، حيث رفع أبو حرب المبرقع اليماني راية العصيان على خلافة المعتصم بعد أن بلغه أحد جنود الترك حاول دخول منزله، فسار إلى جبال الأردن، وصار يحرص من يأتيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر لهم مساوئ الخليفة وتعود أسباب هذه الثورة لسوء سلوك أحد الجنود العباسيين الذي أراد دخول دار تميم حين غيابه وزوجته أو أخته فيها، فمنعته من ذلك فضربها بسوطه فاتقته بذراعها فأثر فيه، فلما عاد أبو حرب شكت إليه الجندي، فغضب أبو حرب وقتل الجندي، واعتصم في جبال الأردن يختفي في الليل ويظهر في النهار واضعا على وجهه برقعاً، فاستجاب له فريق من فلاحي تلك المنطقة، وزعم أبو حرب أيضًا أنه أموي فانحاز إلى جانبه جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له ابن بيهس كان موضع احترام أهل اليمن. وقد عاني السامريون من جراء هذه الحركة معاناة شديدة ، حيث تعرضوا للاضطهاد من قبل المبرقع وقام بالتعدي علي كاهنهم الذي توفي من جراء

هذه الاضطهاد. كما شهدت تلك الفترة أيضا تحويل كنيس سامري كان يعرف باسم "الحضرة" إلي جامع عرف باسم جامع "الخضراء "(٣٦).

ولما علم المعتصم بتلك الحركة التي قام بها أبو حرب كلف القائد رجاء ابن أيوب بالقضاء عليه .ورسم رجاء بن أيوب الحضاري خطة للقضاء على تلك الحركة وهي أن ينتهز فرصة انشغال أصحاب أبي حرب من الفلاحين بالزراعة حين يحل موعدها، وبالفعل انتظررجاء بن أيوب الحضاري هذه الفرصة وبالفعل حل موسم الزراعة، وبدأ أصحاب أبي حرب يهتمون بالزراعة وشغلوا بها، فلم يبق مع أبي حرب إلا ما يقرب من ألف رجل، وبذلك أصبح أمر محاربته هينًا، فتغلب عليه رجاء وأسره وبعث به إلى سامراء(٣٧).

ورغم ما أبداه الخليفة المتوكل من تشدد نحو أهل الذمة ومنهم السامرين ، حيث نهى أن يستعان بهم في الأعمال أو أن يظهروا الصلبان في شعائر دينهم وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الأخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك. إلا إنه في نفس كان رحيما بهم باستجابته لهم عندما تظلم سكان منطقة بيت ماما من أعمال نابلس من ضعفهم وعجزهم عن أداء الخراج ، فقام بتخفيضه من خمسة دنانير إلي ثلاثة دنانير(٣٨).

ومما يذكر أن ما تبقي من العصر العباسي ، والذي شهد سيطرة الموالي علي الأمور في الدولة العباسية ظلت أحوال السامرين في تأرجح نتيجة حالة الضعف التي تعيشها البلاد وزيادة نفوذ الولاة علي حساب الخلفاء. حيث ترصد احدي الحوليات السامرية بعض التجاوزات التي تعرض لها السامرين .

وتشير المصادر أن العصر الفاطمي كان فاتحة خير علي السامرين حيث نالوا قسط كبير من الحرية والسماحة التي كانوا في حاجة إليها منذ مدة طويلة. فعند دخول الفاطميين مصر كانوا بحاجة إلي تثبيت سلطانهم ، ولما كانت غالبية مصر من أهل السنة فلم يركن إليهم الفاطميون ، ورغبوا في الاعتماد علي جماعات أخري ، فلم يكن أمامهم إلا الاعتماد علي أهل الذمة من النصارى واليهود والذي تم منذ أيام الخليفة المعزلدين الله وأسندوا إليهم بعض المناصب العليا في الدولة الفاطمية ، مما أدي إلي تعميم هذا الانطباع بعد وصول نفوذهم إلي فلسطين. ومن ثم فقد عاش السامريون نوع من الرفاهية السياسية في معظم العصر الفاطمي ، والدليل علي ذلك استعادتهم للكنيس الذي سبق وتحول إلي مسجد في عهد الخليفة المعتصم ، وكان ذلك في عهد الخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥- ٣٨٥هـ / ٩٧٥- ٩٩٢م) ووزيره اليهودي أبوالفرج بن كلس ، ووليه السامري الذي يدعي " تقوي" بن اسحق التطيلي(٣٩). ولم يعكر صفو هذا الأمر إلا حالة التعسف المؤقتة التي مارسها الخليفة الحاكم بأمرالله ضد أهل الذمة بصفة عامة.

وقد عاصرت نهايات الدولة الفاطمية الحملات الغادرة علي بلاد الشام والتي عرفت تاريخيا بالحركة الصليبية ، وبحكم استيلاء الصليبيون علي فلسطين فكانت نابلس في نطاق سيطرتهم. وبسيطرة المحتل الصليبي علي فلسطين دخلت تلك المنطقة مرحلة جديدة تحمل في طياتها معالم البؤس والاضطهاد والسلب والنهب ، لما اتسموا به من وحشية وعنفوان.

ونتيجة للصورة البشعة التي خطها الصليبين في بيت المقدس من خلال المذابح الذي مارسوها ضد سكانها دون تميز ما بين مسيحي أو مسلم أو صاحب أي ديانة أخري ، فقد سارع السامريون بتشكيل وفد منهم للخروج للصليبين مرحبين بهم ومحملين بالهدايا قبل أن يصلوا إلي نابلس ويلحقوا بها الدمار الذي مارسوه في المدن الأخري ، ليقدموا لهم فروض الولاء والطاعة. ويعد هذا الفعل من المفارقات الغريبة، فكيف نجد اليوم السامريون الذين كانوا أعداء

للمسيحيين ، ورحبوا وهللوا للفتح الإسلامي ، يتحلوا اليوم بالنسيان ويعلنوا ترحيبهم بأعداء الأمس ليصبحوا أصدقاء اليوم.وقد وصلت القوات الصليبية إلي نابلس عام ١٠٩٩م (٤٠).

والجدير بالذكر أن المعلومات التي تدور حول أحوال السامرين تحت الحكم الصليبي نادرة جدا، حيث لم يبد مؤرخي الحركة الصليبية أي اهتمام لذكر تلك الطائفة، وهو ما يعني دورها الثانوي خلال تلك الفترة، وعدم تمتعها بكثافة سكانية كبيرة تجعلها تحظي باهتمام الصليبيين. وتشير معظم الكتابات التي تحدثت عن أحوالهم أنهم لم ينالوا أي امتيازات مثلما نالوا من الفتح الإسلامي من قبل، حيث ظلت الضرائب والقيود المفروضة عليهم كما هي(٤١). أما بالنسبة لنابلس كمنطقة جغرافية فقد حظيت باهتمام الصليبين ، حيث كانت مقر ثاني لملوك مملكة بيت المقدس ، وكان يعقد بها لقاءات كبار المملكة مع الملك وبطريرك بيت المقدس لمناقشة الأمور السياسية والدينية الهامة(٤٢).

وكانت المناطق الخاضعة للصليبين ومنها نابلس في مرمي المقاومة الإسلامية التي لم تتوقف للدفاع عما تبقي في حوزتها من أراض ،إلي جانب استرداد ما اغتصبه الصليبيين وكانت أكثر الهجمات ضراوة التي تعرضت لها نابلس وخلفت وراءها الكثير من الخسائر في الأرواح والأملاك ، تلك التي قام بها بزواش مقدم العسكر لإمارة دمشق في عهد شهاب الدين محمود حاكم دمشق عام ١١٣٧م (٤٣). وتشير المصادر السامرية إلي هلاك العديد من السامرين ، إلي أن بزواش أخذ معه ما يقرب من خمسمائة أسير سامري تم فداءهم من أموال السامرين المقيمين في عكا ، والذين عادوا بعد أطلاق صراحهم إلي غزة(٤٤).

ورغم ما شاهدته تلك الفترة من تعرض السامرين للإيذاء جراء الهجمات المتبادلة بين المسلمين والصليبيين فقد ظلوا قابعين في منطقة نابلس والمناطق المحيطة بهم ، حيث يقول الرحالة بنيامين التطيلي أنه خلال رحلته إلي الأراضي المقدسة ، وجد ما يقرب من ألف سامري

في نابلس، ومائتين في قيسارية و ثلاثمائة في عسقلان وأربعمائة في دمشق ، ولكنه حسب رؤية بعض المؤرخين المحدثين لم يحدد العدد ألف في نابلس كأفراد أم أسر كاملة(٤٥).

وظلت الأحوال في نابلس علي صفيح ساخن نتيجة الحروب الضارية التي دارت بين المسلمين والصليبيين ، حتي تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد نابلس عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م بعد حصارها لبعض الوقت عن طريق ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد لاجين ، والذي عينه واليا عليه ، واستنزل بأهلها الأمان ، وأقرهم علي أملاكهم وأموالهم. وصارت الأمور علي نحو طيب خلال العصر الأيوبي ، ولم تشر المصادر لما يمكن أن يعكر صفو العلاقة بين الطرفين، ولم تشر أيضا لأي تضيق للسامرين لممارسة طقوسهم الدينية(٤٦).

كان لتدهور الأوضاع في نهاية البيت الأيوبي بعد موت صلاح الدين الأيوبي أن ساءت الأوضاع فأعطت الفرصة للآخرين للتجرؤ علي الدولة الأيوبية في منسبات كثيرة ، ومنها تلك الهجمات التي شنها الصليبيين بعدما استردوا بيت المقدس علي يد فردريك الثاني ، وشنوا هجوما عنيفا علي مدينة نابلس، حيث أشعلوا النيران وسفكوا كثير من الدماء وخربوا الكثير من الأراضي ، وكان هذا الهجوم يعد أخر هجوم صليبي علي المنطقة ، حيث لم تطأ بعده قدم أي صليبي علي نابلس(٤٧). صراع آخر ولكن كان صراع داخليا، حيث كان لاشتعال الصراع بين أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام أن أرسل الصالح أيوب حاكم مصر في استدعاء الخوارزمية لمساندته في الصراع مع أبن عمومته الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، وقد فتح هذا الأمر المجال للخوارزمية أن يستبيحوا الكثير من المدن وكان منها نابلس ، حيث شنوا عليها هجموا ضاريا أسفر عن مقتل الكثير من سكانها ومنهم السامرين بالطبع ، إلي جانب أسر العديد منهم ، والذين أطلقوا صراحهم فيما بعد ، بعدما تلقوا الأموال مقابل إطلاق صراحهم (٤٨).

ومما تجدر الإشـــارة إليه أن الفترة الانتقالية مابين نهاية الدولة الأيوبية وبداية الدولة المملوكية تعرضت الأراضي الفلسطينية ومنها نابلس وما يحيطها لهجمات المغول المدمرة ، حيث استباحوا المدينة وقتلوا العديد ممن بداخلها ، ومنها سيطروا علي بقية الأراضي حتي وصلوا إلي مدينة غزة ، وقبل عودة هولاكو إلي العراق قام بتعين أحد كبار أمراءه ويدعي كتبغا حاكما علي الشـــام كله ، كما عزل عماد الدين القزويني عن حلب وحل محله بشـخصـية أخري من أتباعه.وكانت هذه الهجمات موضع خلط والتباس لدي بعض كتاب الحوليات السامرية ، الذين ذكروا خطأ أن تلك الهجمات المدمرة التي مارسـها المغول في نابلس وراح ضـحيتها أرواح عديدة من فعل المسـلمين ، خاصـة وأن المنطقة شـهدت معارك ضـارية أيضـا بعد النشـاط المملوكي لاسـترادادها من الصـليبيين بعد الانتهاء من دحر المغول. وهذه رؤية خاطئة أكد علي خطأها عدد من المؤرخين المحدثين(٤٩).

وبالنسـبة للعصـر المملوكي، فإن المعلومات التي تدور حول الطائفة السـامرية تتسـم بالندرة الشديدة مثلما كان الحال في العصر الصليبي ، مما كان سببا في فرض بعض التكهنات ، وخلط بعض الأحداث ببعضها نتيجة عدم دقة التحري من معلومات المصدر، فحسب المصادر الإسـلامية، يقول أبن شـداد أن السـلطان المملوكي الظاهر بيبرس أعطي أهل الذمة في نابلس الأمان علي أنفسهم، وحريتهم في أداء طقوس عبادتهم، وحرية التجارة أيضا .

وما كان من أحداث تتصـل بالطائفة السـامرية بقية العصـر المملوكي كان معظمها أحداث تنظيمية وأخري تتعلق ببعض الكوارث الطبيعية التي أصابت منطقة الشام وفلسطين، والتي أثرت بشـكل فعال علي أوضـاع تلك الطائفة ، إلي جانب بعض الثورات الداخلية التي أصـابت المنطقة ككل بالضـرر. وكان هناك بعض الأقاويل التي رددها بعض مؤرخي الغرب بممارسة حكام الدولة المملوكية لعملية اضطهاد ممنهج ضد السامرة وغيرهم بتحويل الكنائس

والمعابد إلي مساجد وهذا أمر مجاف ، حيث ما تم تحويله إلي مساجد ، كانت في الأصل مساجد ولكن الصليبيين هم من حولوها إلي دور عبادة غير إسلامية أثناء اغتصابهم للأراضي الإسلامية.

ففي عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م اصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون قرارا بتميز اليهود بعمائم خاصة ، فيلبس اليهود عمائم زرقاء ، فحين يلتزم السامرين بالعمائم الحمراء. كما منع أهل الذمة أن يمتطوا الجياد أو البغال.كما تعرضت المنطقة لعدة كوارث طبيعية ، ففي عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م تعرضت فلسطين لوباء شديد عم كل مدنها وقراها ، ويصف أبن تغربردي الموقف بأنه لم يبق من سكانها "نابلس" إلا عجوز خرجت فارة.ثم تلي ذلك كبوة أخري كانت سببا في موت عدد كبير من السكان وتكدس السلع والبضائع(٥٠).

كذلك كان من أحلك الظروف التي مرت بتلك الطائفة ثورة البدو التي قامت عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م ، حيث قام البدو في إثارة الرعب والفزع في سكان القدس ونابلس ، وقاموا بقتل العديد من الأنفس حتي وصل الأمر إلي قتل الصغار علي صدور أمهاتهم(٥١).

وهكذا طويت صفحة هامة من تاريخ أحدي الطوائف الدينية من أهل الذمة التي عاشت في كنف المسلمين في حياة في مجملها تتسم بالسماحة وحرية العبادة باستثناء بعض التجاوزات التي كانت في معظمها تتم دون علم السلطة المركزية ، أو كالتي تشكلت من خلال مراسيم شملت كل أهل الذمة بصفة عامة، والتي كانت تعمل علي تلاشيها بمجرد العلم بها. وقد عانوا شأنهم شأن بقية الرعية من الفوضي التي عانت منها الأمة الإسلامية بشكل عام في فترات الفتن والقلاقل التي مرت بالدولة الإسلامية ، مثل الفترة التي فصلت بين انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، وفتنة الأمين والمأمون ، فترة الصراع الإسلامي الصليبي ، والتي كانت سببا في هجرة الطائفة وترك ديارها لفترات كثيرة ، كما أنهم كانوا عرضة للسبي والقتل. كما أنهم لم يثيروا أعمال شغب مثل التي مارسوها في العصر البيزنطي ، وهو ما يدل علي أن التسامح كان

هو المجمل العام لعلاقتهم بالمسلمين ، والدليل علي ذلك أن بعضهم تولي مناصب قيادية مثلما حدث في العصر الفاطمي. وكانت الظروف المحيطة بهم وبخاصة الكوارث الطبيعة من زلازل وأوباءة سببا في انخفاض الكثافة السكانية للطائفة السامرية ، حتي ان أن المسح السكاني الذي قام به العثمانيين أشار إلي ان جملة سكان نابلس في القرن العاشر الهجري / السادس الميلادي بلغت ٤٣٠٠ نسمة شاملة جميع الطوائف والعرقيات الموجودة بها وهو ما يعني بالتالي انخفاض تعداد السامريون بها(٥٢) .

هوامش البحث:

[1]) الاثنوغرافيا تعني الدراسة الوصفية لطريقة وأسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات ، ويعني أيضا بأنه علم وصف الشُّعوب وهو أحد علوم الإنسان وينصبّ على دراسة المظاهر المادّيّة للنشاط الإنسانيّ من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس ، ولمزيد من المعلومات انظر:

http://www.aranthropos.com-ethnography

[2]) لم تظهر كلمة السامرين كتعبير سياسي إلا بعد هزيمة السامرة علي يد الملك الآشوري شلمانصر الخامس

(٧٢٧-٧٢٢ ق.م) وكانوا يشغلون في البداية إقليم السامرة ، الذي تغيرت حدوده عبر القرون ، ولم تكن حدوده ثابتة في كل عصر. وهو يتوسط طرق التجارة التي تربط مصر جنوبا بالشام شمالا ، والأردن بساحل البحر المتوسط . ويعرف أيضا باسم سبسطة. وقد امتد نطاق السامرين بعد ذلك ليشمل إلي جانب نابلس قيسارية وغزة ، ولمزيد من المعلومات ، انظر :

بورشادر، وصف الأراض المقدسة، ترجمة وتعليق سعيد عبدالله البشاري ، عمان ، ١٩٩٥م،ص ٣٧-٣٨ ؛ رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الاراضي المقدسة، ترجمة سعيد عبدالله البيشاوي ، عمان ، ١٩٩٢م ،ص١٠٨-١١٠؛ سيد فرج راشد ،السامريون واليهود ،الرياض ،١٩٨٧م،ص٢٦-٣٠، راجع أيضا:

Bagatti,B.,The church from the Circumcision in Palestine,Jersalem,1984,p 19; Sharf,A., Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade, London,1971,p29

[3]) لمزيد من المعلومات حول علاقة السامرين بالدولة البيزنطية ، انظر

محمد عثمان عبدالجليل، السامريون في فلسطين وعلاقتهم بالدولة البيزنطية، مجلة المؤرخ المصري، العدد الثامن والعشرون ، يناير ٢٠٠٥، ص ٧٦-١٠٦

[4]) القرآن الكريم ، سـورة الأعراف ، الآية ١٥٨

[5]) سفر الملوك ،٢، ١٧: ٢٩ ، فرج راشد ، المرجع السابق ، ص ١٨ ، راج أيضا :

Sandmel,S., Judaism and Christian Beginnings, New York,1978,p369.

[6]) انقسم اليهود في مختلف مراحلهم التاريخية إلي فرق دينية عديدة تدعي كل فرقة أنها أفضل الفرق وأشدها تمسكا بأصول الدين اليهودي. وقد انقرضت معظم فرقهم علي مر العصور ولم يبق منها في الوقت الحالي إلا القليل وهي : فرقة الفريسيين ، والصدوقيين ، والسامرين ، والحسديين ، والقرائيين ، والاختلاف بينهم يكمن في عدم اعتراف السامرين بنبي إلا موسي عليه السلام وبخمسة أسفار فقط ، ولمزيد من التفاصيل أنظر:

إياد هشام محمود الصاحب ، السامريون،مكتبة دنديس، عمان ، ٢٠٠م، ص ٣٠-٣١؛ علي عبدالواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، دار نهضة مصر ، القاهرة ،١٩٧٢، ص ٥٤، راجع ايضا:

Roshwald,M., Marginal Jewih sects in Israel,II, IJmes,vol.4n.3(Jul.1973)pp 328-354,p331.

[٧])سفر الملوك،٢، ٧ :٢٤ ؛ رشاد الشامي ، اليهود واليهودية في العصور الوسطي ، القاهرة، ١٩٩٩م ،ص ١٢٥، زياد مني ، مقدمة في تاريخ فلسطين القديم ،بيروت ،٢٠٠م ، ص ٩٢.

[٨]) يعقوب الفتري ،تاريخ بيت المقدس ، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي ، عمان ،١٩٩٨، ص ١٣٠؛ زياد مني ، المرجع السابق، ص ٩٢، راجع ايضا :

Gaster,M., the Samaritans,London, 1925,p 3; Stanly,A,p., Lectures on the History of Jewish Churh,vol.I,London,1906, pp 460-461.

[٩]) القس إلياس مرمورة، السمريون، دار الأيتام ، بيروت، ١٩٣٤م، ص ١-١٥ ؛ فراج راشد، المرجع السابق، ص ١٩؛ راجع أيضا:

Gaster, op cit, p 14; Roshwald , op cit, pp330-331.

[١٠])عالي الكاهن كان قاضياً لإسرائيل في شيلوه عام ١٠٥٠ ق.م ومكث في منصبه لما يقرب من أربعين عام ، والذي كان له دوراً في صراع الإسرائيليين ضد الفلسطينين ، وكان سبب شقاق أفرايم ومنسي معه ،رفضهم لنقل التابوت من شكيم إلي شيلوه ، ولمزيد من المعلومات ، انظر:

ابن البطريق ، التاريخ المجموع علي التحقيق والتصديق ، جـ ١ ، مطبعة الآباء اليسوعين ،بيروت ، ١٩٠٥م ،ص ٤٢-٤٣؛ محمد بيومي مهران ، إسرائيل ، الكتاب الثاني ، التاريخ ، الاسكندرية ،١٩٩٠م، ص ٦٥٣؛ عدنان ملحم،أوضاع الطائفة السامرية في مدينة نابلس، من خلال كتاب ولاية بيروت ، لمحمد رفيق التميمي ومحمد بهجت ، دراسة منهجية ، مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية) المجلد ٢٠٠٢،١٦م ، ص ١٩٧-١٩٨.

[١١]) البلاذري (أحمد بن يحي) فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦م، ١٨٧؛الشهرستاني(محمد بن عبدالكريم) الملل والنحل ، تحقيق أحمد فهمي محمد ، بيروت ، ١٩٩٢، جـ ٢ ، ص ٢٤٣.

[١٢]) الإصطخري(أبو اسحق بن محمد) المسالك والممالك، تحقيق، محمد جابر عبدالعال، القاهرة ، ٢٠٠٤ ، ص ٤٤؛ الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، بيروت ١٩٩٧م، جـ ٤٢ ، ص ٣٧؛ابن الفقيه(أبو بكر محمد بن أحمد) مختصر معجم البلدان ،ليدن ،١٣٠٢،ص ١٠٣.

[١٣]) بروكوبيوس ، التاريخ السري، ترجمة عادل زيتون، دمشق ، ٢٠٠٣م، ص ١٠١؛ محمد فتحي الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس(عصر جوستنيان) ،القاهرة ، ١٩٨٩م، ص ٢٣٤،راجع أيضا:

Greatz, H., History of Jews, vol.III,Philadelphia,1949,p 13

[١٤]) إياد الصاحب ، المرجع السابق ،ص ٦٦.

[١٥]) البيروني (أبوالريحان) الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزج ،١٨٧٨م ،ص ٢١؛ القلقشندي (أحمد بن عبد الله) ، صبح الأعشي في صناعة الأنشا ، تحقيق، محمد حسين شمس الدين ، بيروت ، ١٩٨٧م، جـ ١٣ ، ص ٢٧١.

[١٦]) يوسابيوس القيصري ، تاريخ الكنيسة ، ترجمة القمص مرقص داود ، مكتبة الحبة ، القاهرة ،١٩٩٩م،ص٨، راجع أيضا :

Crown,A.D., The Samaritans in the Byzantine Orbit, Bulletin of the John Rylands Library,vol.69 (1986) ,p 110-116

[١٧]) ابن البطريق ، المرجع السابق ، ص ١٣٣؛ أحمد عامر، اليهود وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية حتي النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، مجلة التاريخ والمستقبل ، المنيا ، يناير ٢٠٠٣م ، ص ٣٢، راجع أيضا :

Sharf, op cit,p 29

[١٨]) أبو الفتح السامري، كتاب التواريخ ،ص ١٧١-١٧٤ ؛ منشور في :

Abulfathi, Annals Samaritans, edit, Vilmar,E., Gothae, 1865.

نسيم رزق جمعة أبو شلوف ، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ،جامعة غزة ،٢٠٠٩م، ص٥٥.

[١٩]) ابن كثير (الحافظ عماد الدين) ،البداية والنهاية ، تحقيق ،عبدالله بن عبدالمحسن التركي ،القاهرة ،١٩٨٩م ،جـ ١٨ ، ص ٩.

[٢٠]) البلاذوري ، المرجع السابق ،ص ١٨٧ ؛ خليل عثامنة ، فلسطين في خمسة قرون (من الفتح الإسلامي وحتي الغزو الصليبي) ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ٢٠٠٠م، ص ١٥٩.

[٢١]) أبو الفتح ، المصدر السابق ،ص ١٧٩.

[٢٢]) ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل السرياني، ترجمة مار غريغوريوس صليبا شمعون، دمشق ، ١٩٩٦، جـ ١، ص ٣٠٦.

[٢٣]) إياد الصاحب ، المرجع السابق ، ص ٩٠-٩١.

[٢٤]) البلاذوري ، المرجع السابق ، ص ١٧٩.

[٢٥]) أبو الفتح ، المصدر السابق ، ص ١٨١؛ابن عبدربه(أحمد بن محمد) ، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ،١٩٥٣، جـ ٥ ، ص ١٧١.

[٢٦]) أبو الفتح ، المصدر السابق، ص ١٨١.

[٢٧]) أبو الفتح ، المصدر السابق ، ص ١٨٢.

[٢٨]) الجهشاري (أبو عبدالله محمد بن عبدوس) ، دار الفكر العربي، بيروت ، ص ٨٨

[٢٩]) خليل عثامنة ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢، راجع أيضا:

Montgamery,J,A., The Samaritans, philadelaphia, 1907, p 127.

[٣٠] أبو الفتح ، المصدر السابق ، ص ١٨٣.
[٣١] البلاذري ، المصدر السابق، ص ١٨٧؛ خليل عثامنة ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢-٢٠٣.راجع أيضا

Gil,M., A History of Palesine,634-1099, Cambridge,1992,p823.

[٣٢] أبو الفتح ، المصدر السابق ، ص ١٨٥.
[٣٣] أبو الفتح ، المصدر السابق ، ص ١٨٦.
[٣٤] ألياس مرمورة ، المرجع السابق ، ص ٢٦، خليل عثامنة ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦، راجع أيضا:

Montgamery, op cit, p 128.

[٣٥] Montgamery, op cit, p 128.
[٣٦] الطبري (أبوجعفر محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد أبوالفضل، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧م، جـ ٩، ص ١١٦-١١٧؛ عبدالرحمن المغربي ،جامع الخضراء وافاقه في مدينة نابلس من الفترة المملوكية وحتي وقتنا الحاضر ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الآنسانية) مجلد ٢٢(٢) ، ٢٠٠٨م، ص ٥٧٢؛ خليل عثامنة ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦- ٢٤٨.

[٣٧] أبن الأثير (أبوالحسن علي بن أبي الكرم) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، بيروت ، ٢٠٠٣م، جـ ١٠، ص١٥٠، الطبري ، المصدر السابق ، ١١٧.

[٣٨] الطبري ، المصدر السابق ،جـ ٩ ، ص ١٧١-١٧٢ ؛ البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٨٧؛ تريتون ،أهل الذمة في الإسلام ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ،١٩٤٩، ص ١٢٦-١٢٧.راجع أيضا:

Gil,M., A History of Palesine,p 823.

[٣٩]بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمة عزرا حداد ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ٢٠٠٢م، ص ٣٧٥؛ عبدالرحمن المغربي ، المرجع السابق ، ص ٥٧٤.

[٤٠] اعتاد السامريون علي اتخاذ هذا الموقف مع كل فاتح لنابلس ، كانت البداية مع القائد الروماني بومبي عشية استلاءه علي القدس عام ٦٣ ق.م ، ثم التودد لدقلديانوس بتقديم القرابين ، ثم تعاونهم مع المسلمين ، ثم الصليبيين ، ثم ترحيبهم بصلاح الدين الأيوبي. ولمزيد من المعلومات ، أنظر :

البلاذري ،المصدر السابق ، ص ١٨٧؛بنيامين التطيلي ، المصدر السابق ، ص ٣٧٣؛ خليل عثامنة ، المرجع السابق، ص١٥٩.

[٤١] Prawer,J., Crusader Institions, Oxford,1980, p 389.
[٤٢] وليم الصوري، تاريخ وليم الصوري، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٩٢م، جـ ٢ ، ص ٣٥٧، ٣٧٧.

[٤٣]) أبن الأثير ، المصدر السابق، جـ٩ ،ص٣٠٩- ٣١٠؛وليم الصوري ، المصدر السابق ،جـ ٣ ،ص ١٤١

[٤٤]) Nouvelle Chronique Samaritaine, en Revue des Etudes Juives,Tom 46,19o3,p 124; Montgamery, op cit, p 132; Pummer,R., The Samaritans: A profile, U.S.A,2016,p 150.

[٤٥]) بنيامين التطيلي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٢، راجع أيضا:

Montgamery, op cit, p 137.

[٤٦]) يقول أبن الأثير " ووصل نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستنزل من فيها الأمان ، وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم علي أملاكهم وأموالهم، أنظر:

أبن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ١٥٠ ، راجع أيضا:

Nouvelle Chronique Samaritaine,p 126.

[٤٧]) Mediaeval Jewish Chronicles and Chronological Notes, edited by,Neubauer,AD., Oxford,1887,pp 164-165;Kramer,G., A History of Palestine, priceton university press,2002,p15;Crown,A.D., The Samaritans,Germany, 1989,p 93; Montgamery, op cit, p 133.

[٤٨]) Mediaeval Jewish Chronicles and Chronological Notes, edited by,Neubauer,AD., Oxford,1887,pp 164-165;Kramer,G., A History of Palestine, priceton university press,2002,p15;Crown,A.D., The Samaritans,Germany, 1989,p 93; Montgamery, op cit, p 133.

[٤٩]) ابن خلدون (عبدالرحمن بن خلدون) تاريخ بن خلدون ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر، بيروت ٢٠٠م، جـ٥ ، ص ٤٢٣.

[٥٠]) Nouvelle Chronique Samaritaine,p 128; Montgamery, op cit, p 133.

[٥١]) ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ ١٧ ،ص٧٤٠؛ ابن تغر بردي ، المصدر السابق ،جـ ١٠ ، ص ١٥٧

[٥٢]) نسيم رزق ، المرجع السابق ، ص٦٦، ص ٩٢.